أمومة

بقلم

صديق شيبوب

شعر سليم بدقات قلبه تسرع متوالية وضيق في صدره ، واضطراب في أعصابه عندما أعلن رجال الباخرة أنها دخلت المياه المصرية ، وكان اضطرابه يزداد كلما اقتربت الباخرة من الشاطيء وتبدو معالمه في شيء من الوضوح . هذه رمال تعلوها أشجار النخيل ، وهذه المنارة . لقد دخلت السفينة ميناء الاسكندرية ، وظهرت مباني الجمرك تحجب المدينة وبطل من موقعها كوم الناضورة وعليه الاعلام الخافقة والاشجار القائمة .

خمس عشرة سنة قضاها سليم بعيدا عن المدينة التي كانت مسقط رأسه . فارقها طفلا يحبو . وصبيا يدرج الى معاهد العلم . ويافعا تتفتح نفسه للحياة وقلبه للاحساس وعقله للفهم والمعرفة ، وشابا يضطرم قلبه بما يضطرم به قلوب الشبان من حب للجمال المتمثل في امرأة . وآمال واسعة في الحياة يرجو تحقيقها في بلوغ مآربه من متعة بذلك الجمال في ظل عيش لين هنيء .

واحس عندما وصل الى هذا الحد من الذكريات بلذعة ألم تشتد طويلا ، وقد زاد في حسرته أنه ذكر ان في تربة هذا البلد الامين قبرين يضمان رفات من كانا أصل حياته ووجوده .

وقطع عليه تأملاته اضطراره الى الخضوع للاجراءات الطويلة التي يتعرض لها المسافرون عند وصولهم الى الاسكندرية ، وقصد بعد أن خرج من دائرة الجمرك الى أضخم فندق في المدينة .

قضى سليم أيامه الاولى في الاسكندرية يطوف في شوارعها ويقصد الى ضواحيها وهو سواء في جولته خلال المدينة ، او في رحلاته في الضواحي ، يقابل بين ما كانت عليه من قبل وما صارت اليه الآن . ويلمس هذه الفروق في شوارعها ومبانيها ومحالها ، وفي الاضاءة والتنظيم مما كان يمشي مع اتساع

المدينة واكمال زينتها . والدنيا كالسماء في حاجة الى العناية بزينتها وظهور محاسنها وجلاء روعتها .

وكثيرا ماقصد سليم في طوافه هذا شارع السبع بنات ، وما اليه من أزقة وشوارع تصله بالسكة الحديدة وشارع الجمرك وشارع البحرية . تلك الاماكن التي قضى فيها ألذ ايام صباه وشبابه . وجرى له مرة أن دخل احدى العمارات التي كانت تتوسط ذلك الشارع لاستعادة ذكرى الماضي . وكان يسكن شقة فيها .

شعر سليم أن قلبه يقارعه صدره وان نفسه تسيل في أعصابه حين احتواه باب العمارة ، واجال نظره فيما حوله . فاذا كل شيء لم يتغير . هذا باب غرفة العم محمود البواب ، وهذه الدكة التي كان يجلس عليها . ولكن أين العم محمود ، ذلك الشيخ الطيب القلب الذي كان يرافقه في ذهابه الى المدرسة ويعنى بأمره في رفق وحنان .

رأى سليم شابا جالسا على الدكة فسأله

– أين بواب العمارة . فأجاب

– أنا هو .

فلم يشأ سليم أن يسأل عن العم محمود مخافة أن ينعى اليه فيزيد في اضطرابه وسأله البواب عما يريد فأجابه – لاشيء .

وصعد السلم ، ولما وصل الى الدور الثاني وقف أمام باب الشقة واستند الى الحائط لانه أحس كأن الارض تميد به ، وان رجليه لاتحتملانه .

وأحس بشوق ملح ليدخل المنزل ، ويطوف به مستعيدا الماضي المثقل بالذكريات .

ومد يده الى زر الكهرباء ليدق الجرس ولكن شعورا داخليا أوقف يده واعاده الى صوابه .

ترى ماذا سيقول سكان المنزل عن هذا الزائر الفضولي ، وكيف سيستقبلونه وهل يفهمون مافي قلبه من عواطف وشعور . ونزل سليم مسرعا كأنه يهرب من نفسه وقلبه واحساسه .

عاد سليم ادراجه وهو يعيد في ذهنه ماضي حياته ، فيرى نفسه صبيا جادا في طلب العلم وتحصيل الدرس ، وقد فقد والده قبل أن يعي الوجود فعنيت والدته بتربيته وتعليمه ، تنفق عليه مما تركه زوجها من مال واطيان ولكن المال نفد ، والاطيان مرهونة لايكاد يكفي دخلها لوفاء أقساط البنك .

ورأى سليم نفسه شابا يعمل ليشيء له مركزا في الحياة فيحوطه الحظ في عمله وفي قلبه ، نعم في قلبه الذي كان مليئا بحب جارته «ماري»

كم من الذكريات ازدحمت في نفسه عندما جال اسمها في خاطره . انه يذكرها حين جاءت مع والديها الى الشقة المقابلة التي كان يسكنها مع أمه وكانت صغيرة مثلما كان صغيرا ، فكانا يلعبان معا ويتعاونان في تحضير الدروس وكتابة فروض المدرسة، وكانا كلما كبرا تبادلا آراءهما في الحياة . آراء فتية كالتي يولدها خيال من في عمرهما ، فيسر كل واحد منهما لصاحبه ما يعمر به قلبه من أمل باسم في مستقبل حسن .

وتحابا كثيرا ... ذلك الحب الاول الذي يذكره كل واحد في شيء من الحنين والالم ، ولكن حبهما كان في أول أمره هينا لينا، أليسا على وفاق في عواطفهما يصطرعان بها في البيت أمام عيني أميهما وفي المدينة حيث كان نزقهما يدفعهما ،

فيسيران جنبا الى جنب كأنهما يريدان أن يصبحا في وجوه المارة انظروا كيف يتحقق الحب ...

انهى سليم دروسه وخرج الى الحياة يطلب العمل فوجده في أحد المحلات التجارية حيث عين مستخدما ، وأمضى أمانيه أن يزيد في مرتبه حتى يتاح له أن يحقق آماله في السعادة بزواجه من التي اصطفاها قلبه .

وعلت شفتيه ابتسامة مريرة عندما ذكر هذه السعادة المنتظرة . لقد طال انتظاره لها كما طال تحدثهما لماري في ساعات نجواه ، ولكم حلا اليهما تحدثها عن حياتهما في المستقبل متعاونين على سرائها وضرائها ، في حين كانت ماري تمسك بذراعه وتلقي برأسها الى كتفه وتتخيل هذه السعادة التي ترتاح فيها الى هذه الذراع القوية .

وفي صباح أحد الايام فوجئ سليم بالرفت من وظيفته لان تجارة المحل بارت ، ولان الخسارة التي تكبدها أصحابه اضطرتهم الى الاقتصاد في النفقات ، وكان من ضروب هذا الاقتصاد الاستغناء عن جماعة من المستخدمين ومنهم سليم .

آسته ماري ، كما آسته والدته على فقد وظيفته ، وقد قالتا له انه لا يزال شابا ، وان الحياة واسعة المجال امامه وان هذه اول كبوة من كبوات الحياة المليئة بالعثرات .

وطال عهده بالبطالة فلم يستطع ان يجد عملا ، وكانت امه تنفق من دخل الاطيان الذي كان يجب أن يدخر لوفاء الدين . فساءت حالهما في حين كانت اعمال والد ماري في تقدم ونجاح . فانتقل بأسرته من منزل شارع السبع بنات الى الرمل .

وفقد سليم بابتعاد ماري أكبر عزاء له واعظم معين على تحمل ما هو فيه .

على أن صلتهما لم تنقطع ، وحبهما لم يفتر ، كانا يلتقيان اليوم بعد الآخر والفينة بعد الفينة ، فيطوفان بحبهما بشواطئ البحر ومتنزهات الضاحية الجميلة وشوارعها .. وفي مساء أحد الايام كانا عائدين الى منزل ماري بعد ان سرحا طويلا توقفت ماري فجأة عن السير وقالت :

ـ اسمع ياسليم ، اخبرني والدي أمس أن قد تقدم أحدهم بخطبتي ، وانه بال حظوة لدى والدي ووديهما ، وان ما علمناه عنه يكفي لتزكيته !

ـ وماذا قلت !

ـ لبثت صامتة فلم أفه بكلمة .

ـ لعله ظن صمتك عن حياء ، وانك راضية بمن يختارونه لك . والآن اسألك بدوري ماذا تنوين ؟

فلم تجب ماري على سؤاله . أما هو فان هذه المفاجأة قطعت عليه الكلام فتلعثم لسانه وارتج عليه . ومن الناس من اذا ثارت أعصابهم انفجرت ثورتهم كلاما على لسانهم ، ومنهم من تقطع عليهم ثورة الاعصاب الكلام فلا يجدون اليه سبيلا بينما يشعرون باللظى يلهب أحشاءهم ، وهؤلاء هم الذين اعتادوا أن يعيشوا بخيالهم فيخفون عواطفهم كأنما يضنون بها على الناس جميعا . وهكذا كان سليم .

ومشى سليم الى جانب ماري ولست تلك النار المتقدة في النجوم البعيدة باشد مما في قلبه ، وكان يردد بين حين وحين .

ـ انك لن ترضي به ، قولي انك لن ترضي به .

وظلت ماري صامتة ، وامسك سليم

ينهض فاذا هي بارده ... ونظر الى وجهها فاذا الدمع متساقط من عينيها ببطء .

قد انت ياماري من حبيبة .. لاتبكي فان عينيك لم تخلقا للبكاء ولا تضطربي فاني مادمت حيا أفديك بكل عزيز لدى حياتي فداء لك .. سأتحدث اليوم الى والدتي لعلها ترضى بزواجنا وسأشتغل لنعيش سعيدين والله رؤوف بعاشقين نعسين من عباده المخلصين .

وظلت ماري صامتة .

وافترقا على أن يلتقيا . وأفضى سليم الى امه بما كان . فأجابته بأن أقصى أمانيها أن تراه رب بيت ووالد . ولكن أين السبيل الى هذا وحالتهم هي مايعرف . وما دامت الفتاة تحبه كما يدعي . فليشر عليها بالصبر حتى يفتح الله عليه بالفرج . ولا يضيرها الصبر لانها لاتزال في ميعة الصبا ومقتبل العمر .

وجاءت ماري في الموعد المضروب كما عودت سليما من قبل . وقد ظلت كذلك صامتة عندما اخبرها بما قالته امه ولكنها لم تلبث أن اقبلت عليه في عطف وحنان . فهدأت نامة نفسه . وفرت خلجات فؤاده وظن أن ماري قد اطمأنت الى حديثه . ورضيت بما عرضه عليها . ولم يدر في خلده ان ماري قد استقرت عزيمتها على طاعة والديها . وانها تريد أن تتودع من هذا الوجه الذي طالما أحبته . ومن هاتين العينين اللتين طالما طالعت فيهما الهناء المرتقب والسعادة والموعودة واللتين طالما سهرتا عينيها ونفتا الرقاد عن جفنيها .

أجل ان الأبوة المرتكزة في نفس ماري دلتها على ان الفتاة في الشرق مصيرها الزواج لتعيش حياتها مطمئنة الى رجل يعولها ويدفع عنها غوائل الحياة ومفاجآتها المزعجة . واذا كانت المرأة أدق عاطفة من الرجل والهب احساسا

فانها اسرع منه الى التضحية بهذه العاطفة احتفاظا لمستقبلها وضمانا لتحصيلها .

رأت ماري أن الزمان يمر مسرعا وان للشباب مواقيت يزول بزوالها . وان الدنيا حظوظ وفرص يجب اغتنامها اذا اقبلت . والمرأة أقرب الى الحياة العملية من الرجل . فبينما يسير بعض الرجال في حياتهم العاطفية وراء مثل أعلى يتخيلونه في الجمال والحياة .. تسترشد أكثر النساء بحياة عملية لينة وينفس الخيالات والاوهام .

وهكذا شعر سليم انه قذف به من حالق حين أخبرته ماري انها نزلت على ارادة والديها وانها رضيت بالزواج ممن اختاروه لها . وان هذا الموعد آخر ما يضرب بينهما .. واظهرت ماري من الشجاعة والتجلد ما جعل سليم يشك في حبها الطويل له .

الله في صرح آماله المتهدم . اين المستقبل الذي حلم به سليم .. واين السعادة التي طالما رجاها . واين ما هو آمال وأماني .. لقد تلاشى الحلم .. وتبددت الاوهام . وهذه الحياة تبدو في حقيقتها المخيفة تصرعه فلا يدري مايقوله . ولا يملك غير ان يردد :

ــ هذا صعب الاحتمال . انه مستحيل انت تقولين هذا ياماري .

وكانت ماري ترد عليه

ــ سوف تنساني ياسليم .. الم تكف هذه السنون الطويلة التي تحاببنا فيها .. الم تملني .. ليس ما بك حب ولكنها العادة .. سوف تحب غيري .. وتألف حبها كما ألفت حبي . سوف تبرأ مما أنت فيه .

وعندما افترقا لم يجرؤ سليم ان يلمس يدها . وكان شيئا من الحجر حال بالرغم من ماري بينها وبين أن تضمه

الى صدرها تلك الصمه التي كانت أملها في الحياة .

ياشقاء القلب البشري . أيكفي ان يختفي وجه محبوب ، وان تتحول عينان طالما طالعتا في لحظيهما الحب وفي نورهما الهوى واللذة حتى يحيل اليأس ان الناس ليسوا كما عهدناهم ناسا وان الاشياء ليست كما عرفناها اشياء . ما الحياة وما العالم وما الناس ، وما الاشياء في ساعة مثل هذه الساعة ، ظن سليم ان الارض تميد به وان الحياة تتسرب من جسمه شيئا فشيئا ، وانه سيقضي نحبه في ليلته تلك . وهل يذكر انه بعد أن ترك ماري من محطة الترام وسمع صوت عرباته آتية من ورائه فسعر كان شيئا يقذف به على قضبان الحديد لعل العربات تمر عليه فتريحه لما يعانيه .. ولكنه تماسك . ويذكر أنه اتكأ الى جدار قريب وانه أمسك بهذا الجدار مخافة أن يقذف بنفسه تحت عجلات الترام .

وساءت حالته بعد ذلك كثيرا اذ أعوزه وامه المال ، فبيعت الاطيان وافتقرا .. وماتت أمه حسرة وكمدا .

أما هو فتذكر ان له عما في أمريكا فأرسل اليه يخبره بما أصابه فبعث اليه بشيء من المال يساعده على السفر اليه .

وكانت الوحدة في الاسكندرية قد أمضته بعد وفاة أمه فما كادت تصله النقود حتى سافر تاركا في الاسكندرية أمر ذكرياته . حاملا في نفسه قلبا محطما وجراحا دامية .

ذكر سليم كل هذا بينما كان عائدا من شارع السبع بنات الى الفندق وذكر كذلك كيف استقر في أمريكا ، وكيف عمل . وكيف اثرى ، وذكر أيضا كيف صدف عن النساء مخافة أن يعلق قلبه بحب جديد لاقبل له بدفعه، ولا سبيل له الى احتماله بعد أن قاسى ماقاساه ..

وهو لايدري كيف عاد الى الاسكندرية ولماذا عاد اليها ، وكل الذي يعرفه انه أحس بشوق ملح الى رؤية المدينة ومشاهدة المعالم التي كانت ملاعب صباه ومراح شبابه .

قضى سليم أكثر من عشرين يوما بالاسكندرية استعاد في خلالها صلاته ببعض اصدقائه القدامى من رفاق صباه واخوان شبابه . ولكنه لم يجرؤ مرة أن يسأل احدهم عن ماري وماذا أصبحت ، وكيف هي الآن . وكان احساسا داخليا كان ينبئه بأنه سيلقاها مصادفة .. وهكذا كان .

فانه بينما كان واقفا مرة على باب محل حلواني كبير بشارع فؤاد بسيدة ممتلئة الجسم . حلوة الملامح تنظر اليه طويلا . فخيل اليه انه يرى ابتسامة مبهمة تهيم على شفتيها ، وهم أن يلحق بها ، وأشد ما كانت دهشته حين رآها تعود اليه فظن انها تريد دخول محل الحلواني فتنحى لها عن الباب . ولكنها تريثت قليلا ثم نظرت اليه مبتسمة وقالت :

— بونجور ياسليم . كيف أنت ومتى عدت الى الاسكندرية ؟

من يصف شعور سليم حين بلغ مسامعه هذا الصوت الذي طالما ود سماعه وتعرف هذه الابتسامة الرقيقة التي طالما تألم لاجلها .

ماري .. أجل انها هي !! وقد عرفت سليما حين رأته ، وترددت في مخاطبته ولكنها فطنت الى أنه ربما لم يعرفها وقد بدلت بعد الزواج . فتركزت خطوط وجهها . واكتنزت أعضاء جسمها اكتنازا وخصبا .

وسارا يتحدثان جنبا الى جنب .

زار سليم ماري مرارا في منزلها .. وكان في كل مرة يشعر بأن قلبه

يستعيد عواطفه التي كانت راكدة في قرارة نفسه، وان ما طغى عليها من زوال وانقضى عاد يطفو على صفحة الزمان قويا عنيفا كما كان

وتعرف سليم الى زوج ماري ، وعلم دقائق حياتها وما تقاسيه من ألم لان زوجها يهملها فيقضي نهاره في عمله وليله في أندية القمار ودور اللهو ظنا منه انه اذا كفى زوجته الحاجة وأغدق عليها المال فقد كفاها كل شيء ولا يلقي بالا الى عواطفها وما يضطرم به فؤادها من عدم الى عطف وحنان وحب . ولولا أن رزقها الله بعد زواجها بنين غلاما جعلته موضع حبها لكانت من أتعس الزوجات .

ولج الحب بسليم حتى لم يطق صبرا ولم يستطع صمتا ، فبث لواعجه لماري التي أصغت اليه بعطف وأخذت بدافعه برفق كما فعلت يوم قطعت علاقتها به .

ان لها اليوم زوجا يجب أن تصون شرفه ، ولها ولدا يجب الا يستحي بأمه بعد الليست الحياة واجبات بعضها شرائع نعمل بسنتها ونصدق عن نواهيها .

ولكن هذه الاعتراضات التي قدمتها ماري لسليم في قوة وتشدد عندما شرع يذكرها بحبهما القديم ، أخذت تتخاذل شيئا فشيئا ، وكانت زياراته الطويلة وجلوسه اليها منفردين تقرب بينهما ، وتبعث في قلب ماري عواطف كانت قد تناستها مع مرور الزمان .

وهكـــذا تخاذلت ماري شيئا فشيئا أمام عواطف سليم الملتهبة وحججه الوجدانية المؤثرة .

كيف ترضى بأن تصون شرف رجل لايعنى بأمرها ولا يعمل على اسعادها والاحتفاظ بها ، أليس من حقها أن تنعم بالحياة كما تنعم، وان تلبي دواعي قلبها كما يفعل وما الواجبات ، وما الشرائع ، وما الحياة اذا خلت من العيش وراء الشباب ولم يبق غير الشيخوخة المضنية أما ابنها فهو عند سليم بمنزلة الولد ، وسيحنو عليه أكثر من حنو الآباء .

وجلس سليم في أحد الايام يبث لواعج حبه المضطرم ، ويلح في طلبه على تلبية نداء قلبها ، وشعرت ماري أن سليما على حق فيما يقول ، وان عقلها ينهزم أمام قلبها ، وان عزيمتها تتلاشى أمام عواطفها ، وطالع سليم في عيني ماري الحب والهوى، وقد رنت بطرفيهما واتقدت حدقتاهما ، ورأى شفتيهـــا تضطربان وصدرها يخفق ... وفجأة فتح باب الغرفة واندفع ابنها الصغير نحوها مناديا :

ـ ماما .. ماما .

وقف العاشقان كل أمام صاحبه وجها لوجه ، واحتضنت الام ابنها وقبلته قبلة طويلة ووضعته بينها وبين سليم وقد عاد اليها هدوءها ورباطة جأشها .

فهم سليم أن لاسبيل الى استعادة الماضي والفوز بقلب ماري ، وان كل تعاطف بينهما يجب أن يزول ، فودعها وانصرف .

بينما كانت ماري وزوجها يتناولان طعام الغداء في اليوم التالي قال الزوج :

ـ زارني اليوم صديقنا سليم بمكتبي واخبرني ان عملا مستعجلا يضطره الى السفر الى امريكا غدا وانه لن تتاح له فرصة سانحة لتوديعك فرجاني ان اعتذر اليك عن تقصيره .

وبعد صمت قصير قال الزوج

ـ النفس بسليم منذ اسبوع فكان نشيط الحركة تبدو عليه مظاهر الصحة والشباب ولا أدري ماذا أصـــابه بعد ذلك ، فقد خيل لي اليوم أنه قد هرم وبدا كأن سنه قد زاد في هذا الاسبوع عشر سنين .